بين امي وابي

١ ـ التضامن العائلي

تفنن علماء الاجتماع في نعت المجتمع الانساني والاسرة الواحدة والمقارنه بينها واسبغوا على تلك النعوت والصفات حللا زاهيه من ساحر البيان وفيضة رائقة من معين الفكر والخيال . فجاءت بحوثهم مشبعة بروح الحقيقة الخالدة التي تستمد جدتها وخلودها من انوار الحياة المتألقة وشعلها الوهاجة

وكان آخر ما توصلوا اليه من تلك النعوت انهم شبهوا الاسرة الواحدة بالحجيرة الدامية في جسم الكائن الحي . فاذا كانت الحجيرة الحية ـ كما هو معلوم لدى علماء الاحياء تحمل جميع صفات الحياة وتخضع لمختلف تطوراتها كان لزاماً علينا بموجب ذلك التشبيه ان نعتبر الاسرة الواحدة جزأ لا يتجزأ من المجتمع تنطبق عليها جميع صفاته وتطبق بين افرادها معظم انظمته ونواميسه . فالاسرة في الواقع مجتمع مصغر تربط بين افراده روابط طبيعية متينة تعد بحق حجر الزاوية في بناء كيان وطيد للمجتمعات الانسانية الكبيرة ، فالسلطة المطلقة والرعاية الشاملة تتمثل في الاب كما تتمثل روح التضحية والتفاني في الام والطاعة والولاء في الابناء والتضامن الاقتصادي بين جميع الافراد على حد سواء . واذا أراد الكاتب الاجتماعي أن يدرك حقيقة التطور المضطرد في مجتمع ما ويحيط الثام عن اسراره الغامضة كان عليه ان يقوم بزيارات قصيرة لبعض البيوت المتباينة ليدرك بين جدران بعضها تلك الحقيقة التي تحرك العالم باسره فتقطع به خطوات سريعة في مضمار التقدم والرقي كما تبدد له اسباب التأخر والانهيار في بعضها الآخر بكل جلاء ووضوح .

كانت ولا تزال ذاكرتي تزدحم بصور حية لحياتنا العائلية تلك الحياة التي نوهت عنها سابقاً واتخذتها قاعدة رئيسية لدرس ظواهر الحياة الاجتماعية بطريقة تحليلية لا تحتمل الريب والجدل . لقد جئت بعرض بسيط لصورة من تلك الصور لم تترك في نفسي فيما مضى اثراً سيئاً كعقدة فانكه تنخر من اسرتي البائسة عظمها وتستنزف دماءها مثلما تركته في نفسي من غبطة وابتهاج كحادثة طريفة مضحكة .

كنت كغيري من الطلاب البؤساء الذين لا يسقط درهم على مقربة منهم الا وتفتحت قلوبهم واستحالت جوارحهم باجمعها الى آذان مصغية لتلتقط رنينه العذب بغمرة طافحة من الاحساسات اللذيذة المرهفة . وقد ساورتني اكثر من مرة تلك الاحساسات اللذيذة المتدفقة بصورة خاطفة حينما كنت اسير مساء في شارع من شوارع بغداد فابصر نقوداً لامعة مبعثرة هنا وهناك ولكن الامل سرعان ما يخبو ويستحيل ذلك الشعور الخاطف الى حسرات ملتهبة ممزوجة بالخجل واليأس حينما أهم بالتقاطها فيظهر زيفها واذا هي اقراص من البصاق تسقط عليها الاضواء الكهربائيه فتكسبها ما في النقود من جمال وجلال

هذه توطئة لابد منها جئت بها تمهيداً لوصف ما تتمتع به اسرتي البائسة من تضامن معكوس كان السبب المباشر في تحطيمها وشقائها .

ما ان حل اليوم الاخير من عطلة عيد الاضحى حتى تأهبت لمغادرة الهندية والعودة الى مدرستي في بغداد وكنت ـ كما ذكرت ـ لا املك قليلا ولا كثيراً من النقود . لقد طالت الفرصة التي جلست اتطلع فيها بفارغ الصبر الى كلمة أو اشارة تصدر من والدي او والدتي بشأن سفري الى بغداد . اذن لابد لي من ان ابادرهما بما يختلج في طوايا نفسي من مرارة الانتظار لعلها يعجلان في تسهيل الامر ولكنني لا امتلك الشجاعة الادبية التي تلتقي معها نظراتنا وتنطلق السنتنا فيدر كان ضمنا ما انا فيه من حيرة واضطراب . ولكن رحمة من الله قد انقذتني من ذلك الصراع النفساني العنيف . لقد كانت والدتي تسترق اللحظ الى حركاتي وسكناتي والان قد تأكدت من كوني اعاني حالة نفسية غير طبيعية فاسرعت الى مفاتحتي بالموضوع . ولكنها لم تترك يميناً يعرفه الناس إلا وأقسمت به على انها لا تملك فلساً واحداً . اما والدي فقد أدى يمينه على الوجه الاكمل وخرج من الدار .